قرأت العدد الماضي من "الآداب"

بقلم

محمد توفيق حسين

التجزيئية في المجتمع العربي : نازك الملائكة

قرأت هذا البحث القيّم فأعجبني. اعجبني منه هذا الاسلوب الجميل ، والبيان الواضح ، واللغة المحددة الرصينة . واعجبني منه هذه الجرأة الشجاعة على وضع قيم المجتمع ومقدساته على محك العلم تختبرها ، وتناقشها ، وتبيّن ما فيها من محافظة وجمود . واعجبني منه هذه الدعوة النبيلة الى اقامة مجتمع خيّر « تتنفّس فيه الطاقة الانسانية المبدعة ... ويرتبط فيه القانون والاخلاق والعمل جميعاً بالحاجة البشرية . » ومن حقّ هذا البحث القيم علينا ان نقف عنده فنطيل الوقوف، ونناقش بعض ما ورد فيه من افكار قد نخالف الاديبة النابغة فيها .

نظرت الآنسة نازك الى المجتمع العربي فوجدته « قلقاً » تتأرجح نظمه ، ولا ترتكز الى مستند نظري ثابت . وقد نشأ من هذا التقلقل الفكري العام ظاهرة كبرى تتغلغل في الحياة العربية كلها اسمتها الكاتبة « التجزيئية » اي « جنوحنا الى عزل الظواهر عن بعضها ، ودراستها مفصولة ، وكأننا نفترض ان حياتنا تتكون من مجموعة من المجالات المتضاربة التي اجتمعت مصادفة في خليط . » اما انّ المجتمع العربي قلق ، مقلقل ، فقضية لا شك فيها . واما ان التجزيئية ناشئة عن هذا القلق والتقلقل فقضية فيها الشك كله. ان التجزيئية ناشئة عن الجهل بطبائع الأشياء ، والعجز عن تعليل الظواهر الطبيعية والاجتماعية تعليلاً علمياً ، منطقياً . ولقد كانت هذه النظرة الخاطئة شائعة في المجتمعات « الراسخة » القديمة ، وما زالت شائعة عند جهال الناس والمتعلمين تعلماً ناقصاً مشوّشاً . واما النظرة الشاملة الى الحياة، واعتبار ظواهر المجتمع وحدة مترابطة الاصول ، متواشجة الفروع ، تقوم بين عناصرها المختلفة علاقة تشبه قانون السبب والنتيجة ، فنظرة حديثة العهد ، ابوها العلم الحديث . ويعود ما نلاحظه عند الكثيرين من كتابنا ومفكرينا من هذه التجزيئية الى فساد فهمهم لطبائع الامور، وعجزهم عن الاحاطة بعللها . وردّها عند البعض الى سوء النية ، وخبث الضمائر . فهم ينشرون هذا النحو من التفكير عن قصد ، صداً للناس عن الوصول الى الحقيقة ، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تمسّ مصالحهم، وتهدد وجودهم. وردها عند فريق آخر من مفكرينا الى الجبن الذي يدفع صاحبه الى تزوير الحقائق تجنباً للدعوات التي تضع صاحبها امام مشاكل محرجة .

وتذهب الكاتبة الى ان النتيجة المباشرة لهذا الاتجاه التجزيئي هي ظاهرة « التضخيم ». « فنحن نمنح بعض الظواهر قيمة اعظم مما تستأهله الى جانب الظواهر الاخرى ... وخير مثال لهذا ما نراه اليوم من حدة الاتجاه الى اعتبار السياسة هي الموضوع الوحيد الذي ينبغي ان يشغل المواطن العربي... وهذا مطابق للحجج التي يوردها معاصرونا رداً على كل نشاط لا يتعلق بشؤون الحياة المعاشية ... »

حقاً ان «التضخيم» هو النتيجة المباشرة لهذه النظرة الخاطئة . ولكن هناك نتيجة مباشرة اخرى ينشأ من هذه النظرة في الوقت ذاته، هي ظاهرة « التصغير » او « التضئيل » فالتقليل من شأن القضايا المهمة ، وغض النظر عن العلل الأساسية، نظرة خاطئة ، وخيمة العواقب . المجتمع كالكائن الحي يقوم كل عضو فيه بوظيفة معينة ، بالتعاون مع الأعضاء الأخرى . ولكن هذه الاعضاء تتفاوت اهمية وخطورة . فوظيفة القلب اهم من وظيفة إصبع القدم . والعين اهم من السن . وبعض مقومات المجتمع اهم من بعض. وحل بعض مشاكله مفتاح لحل مشاكله الاخرى. من اين ننطلق لنحقق للانسان العربي هذا المجتمع النبيل الذي تدعو الآنسة نازك الى اقامته ؟ عندما اقول الانسان العربي اعني كل انسان عربي، كل من يسكن الاقطار العربية، لا مجموعة من المثقفين ، والحالمين، والمترفين. وهذا الانسان العربي ، على العموم، فقير، جاهل ، منهوبة ثمرات كدحه ، محروم . وكيف تتنفس طاقته المبدعة، وتزدهر قواه الروحية، والكدح في سبيل الرغيف يأكل عمره، ويهد قواه، والحرمان يشل نشاط روحه، ويبدد طاقاتها؟ فالنضال في سبيل الشؤون المعيشية ، والتأكيد على ادب الرغيف، من صميم قضية المجتمع العربي. ولا يمكن ان تقوم حياة روحية فاضلة على اساس اقتصادي فاسد ؛ ومفتاح حل هذه القضية

الجوهرية المعقدة انما هو السياسة . فالقضية ، اليوم ، هي قضية تغيير هذا الاساس الاقتصادي الذي يقوم عليه المجتمع . على ان الذين يعيشون ، مرفهين ، من هذا الواقع الاقتصادي يعارضون كل تغيير . وهؤلاء هم الذين يقبضون على دفة السياسة ، اي الحكومة بتعبير ادق ، يسيرونها كيف شاءت مصالحهم ، وهم الذين يخنقون الحرية ، ويحاربون المصلحين . وكيف يرجى اصلاح ، والحرية مخنوقة الانفاس ؟ لقد انقضى زمن كان فيه التطور يجري عفوياً ، لا واعياً ، ويريد الناس اليوم ان يطوروا مجتمعاتهم تطويراً ارادياً واعياً . وكل اهمال للقضية السياسية والاقتصادية ، والتقليل من شأنها ، انما هو ابتعاد عن واقع الحياة ، وانعزال عن تيارها ، وصد للناس عن التفكير السليم . لماذا يحرص سدنة هذا المجتمع الهرم على السياسة ، ولماذا يبعدون الشعب عن المشاركة فيها باصرار وضراوة ، اذا لم تكن السياسة ذات قيمة ؟

ان تفكير الآنسة نازك يتأرجح بين الواقعية العلمية وبين المثالية التجريدية . لقد وصفت القوانين وتخلفها عن الزمن ، والضمير العربي المثقل برواسب من العادات القديمة والقيم العتيقة الذي يمزق كيان الفرد ويدخل الاضطراب الى حياته ، والاخلاق العربية التي تقسم الفرد الى جزئين خيّر وشرير ، وصفاً علمياً ، دقيقاً . وبحثت في قضية المرأة العربية بحثاً جريئاً رائعاً . ودعت الى ان يكون الانسان هو مصدر القيم ، ومقياس الاخلاق . ولكنك تلمح من خلال نظرتها هذه العلمية الواقعية ، نظرة مثالية ، غيبية . فهي تتكلم عن المجتمع وكأنه كائن حي حقاً ، وكأنه مؤلف من مجموعة واحدة من الافراد ، متجانسي المصالح ، موحدي الأهداف ، وكأن بامكان هذا المجتمع ان « يوسّع دائرة اعتباراته فيدخل الاخلاق الايجابية في دائرة الضروريات وينحّي الاخلاق السكونية عن المركز » دون ان يغيّر الاسس المادية التي تقوم عليها هذه الاخلاق . وهي تنظر الى القوانين وكأنها افكار مجردة ، وما هي ، في الحقيقة ، الا التعبير النظري عن علاقات اجتماعية واقتصادية أملتها مصالح الفريق المتغلب في المجتمع . وكل تغيير اساسي لهذه القوانين يقتضي ، حتماً ، تغيير اسس تلك العلاقات الاجتماعية والسياسية .

ابي : نزار قباني

منذ ان كان الانسان والموت يفجع المحبين بمن احبوا ، ومنذ ان كان الانسان وهو يتحدى الموت ويثور على العدم ، لم تعرف النفس الانسانية شعوراً آلم وافجع من الشعور بأن من تحب قد مات . ما تكاد تصدق الواقع لحظة حتى تثور عليه ، وتتحداه بكل ذرة من كيانها محيا فيها ذلك الحبيب الذي مات ولن يعود ، وبكل اثر من آثاره يذكر به ، ويومىء اليه . وقصيدة نزار قباني تصور هذا الشعور اعمق تصوير ، وتغني هذا التحدي للموت اشجى غناء . وقد تعاونت بساطة التعبير ، وروعة الصور ، وحيوية الخيال ، وشجو الموسيقى ، تعاوناً متناسقاً ، فابدعت قصيدة تعبق بالشعر ، وتضج بالحياة* .

انشودة النبع : عز الدين اسماعيل

فكرة جميلة ، اراد الكاتب ان يبدع منها قصة . ويغنيها شعراً ، فاخفق . وحشد في القصيدة عدة قصص لتوضيح فكرته ، ومدها بدم الحياة ، فاطال وما اقنع . وجاءت صوره جامدة الملامح ، مشوقة الالوان . وسلك الكاتب سبيل الشعر الحر ، المنسرح ، فلم يوفق . وما اقل من يعودون من بستان هذا الشعر المباح ، المفروشة دروبه بالاشواك ، بالثمرة الناضجة ، والزهرة الرائعة لوناً وشكلاً وعطراً . القصيدة في معناها ، نثر كلها ، وما دون النثر الجيد في مبناها . وسألت نفسي : ترى هل رأى الكاتب نبعاً يتفجر من بين الصخور هادراً ، معربداً ، صخاباً ، فرحة السمع والنظر والروح ؟ وهل ابصر نبعاً يرشح من قلب الصحراء مستأنياً ، حيياً حالماً ، كأنه يخشى ان ترشفه الصحراء العطشى ، او يخاف ان يخجل عطشها المحرق ؟ اذن لحملت انشودته ، هذه التي يعوزها الغناء ، ولو صدى بعيداً ، خافتاً ، من موسيقى النبع !

ارضنا التي يزرعها اليهود : عدنان الراوي

هل جلست ، في امسية من امسيات الخريف الكئيبة حيث يسير الجمال والموت متعانقين في صمت حزين ، على حافة غدير تكر فيه الامواج هادئة صامتة ، وكأن كل موجة تحمل في قلبها ذكرى سعادة انطوت وفرحة ماتت ؟ كذلك شعرت وانا اقرأ هذه القصيدة الحزينة ، تكر مقطوعاتها حزينة النغم ، وديعة الخيال ، تطوي كل مقطوعة في قلبها ذكرى من فلسطين انطوت ، وفرحة ماتت . وما تزال هذه الموجات الشعرية الحزينة تتوالى على القلب حتى تكاد تخنقه حزناً ، فيصرخ ، مع الشاعر ، في ثورة تبللها الدموع :

* كلمة «ضلوع» في « زرعت الهوى حيثما سرت .. فاحصد ضلوع الاحباء في الموكب » تؤلم الذوق . فالتعبير عن جني الحب بحصد الضلوع ، والحصاد يوحي بالتقطيع ، تعبير يبرأ منه الشعر ..

هي الخطوة . . يا أرض وتلك الضفة الاخرى
على الابيض . . ذاك الشط . . يا خطوة ملقانا

لن نستكين : سمير صنبر

كلما قرأت هذه القصيدة احسست وكأن شيئاً يتوثب في قلبي ويثور . وكأن نداء قوياً ، فيه عنفوان الثورة وكآبة الذكريات الحزينة ، يوقظ روحي . لقد ابدع الشاعر من هذه البحور الشعرية المنسابة، والموسيقى المتدفقة المتفجرة ، والصور المشحونة بذكريات الالم ، انشودة فيها كبرياء الألم الثائر ، وعنفوان الشباب المصمم على المعركة .

النهر العاشق : نازك الملائكة

قبل ان يكون تاريخ ، وقبل ان تكون حضارة ، كان دجلة يتدفق في ارض العراق دفقه الحنون . وعلى ضفاف دجلة نشأ التاريخ ، وولدت الحضارة . وقد احب العراقيون نهرهم هذا واحبهم ، وعاشوا من دفق نعمته ، يرتوون من مائه وجماله. وكان لهم صديقاً وحبيباً ، يبثون امواجه لوعة قلوبهم، وينثرون على ضفتيه افراح حياتهم . ويأتي دجلة ، احياناً ، ثائراً،معربداً ، فيغرق،ويدمر ، ويخرب . ويجزع العراقيون ، ويألمون ، ولكنهم لا يحقدون على نهرهم ولا يثورون ولا يجدفون . قبل اربعة آلاف عام او تزيد وصف الشاعر العراقي الاول ، في النشيد الحادي عشر من ملحمة غيلغامش ، الطوفان في العراق اروع وصف يستطيعه شاعر انسان . وعندما نظر الشاعر من فلكه راعه ان يرى بني قومه وقد حولهم الطوفان الى طين ، فبكى ، وسالت على خديه دموعه . وجدّف على الآلهة ، وثار على ظلمهم ، ولكنه لم يغضب على نهره الحبيب ، ولم يجدّف . وكأني بالآنسة نازك وقد احست ان دجلة الصديق قد ادمى قلوب العراقيين هذه السنة ، فكتبت هذه القصيدة الناعمة الحنونة ، تصوّر فيها صداقة النهر للعراقيين ، ونعمته عليهم ، وبره بهم . واستطاعت الشاعرة ان تفسّر ، في هذه الصورة المبتكرة للنهر ، معنى هذا النهر الذي هو اعمق من ماء يتدفق بين ضفتين ، ومعنى حبّ العراقيين له . وكان خيال نازك الخصب الخلاق يسبق لغتها ، فجاءت بعض الكلمات غريبة بين جاراتها ، وجاءت بعض الابيات وكأنها ترجمة حرفية عن لغة اجنبية .

الطوفان : علي الحلي

يستجيب الشاعر لثورة النهر ، فتنطلق احقاده على القصور المتكبرة والطغاة الظالمين ، صخّابة ، معربدة ، هادرة ، في نغم متدفق الموسيقى ، وكلمات متواثبة المعاني والصور . وساءلت نفسي ، والقصيدة تحملني على امواجها الحاقدة الثائرة المعربدة ، ترى هل اقترف الظالمون اثماً اعظم من زرعهم كل هذا الحقد الاسود في قلب انسان خلق ليحب ويحلم ويشمل بالجمال ؟

الغريق الاول : زهير احمد

تقرأ هذه الرائعة الفنية فتحسّ هول الفيضان في العراق ينبعث في نفسك حياً ، مروّعاً ، مخيفاً . واذا هذه المأساة الانسانية، مأساة الغرقى والمشردين والقلوب المفجوعة ، تتجسم امامك فتملأ نفسك حزناً . عبر الشاعر عن هذه المأساة ببساطة، واستمدّ الوانه من الواقع ، فاقبلت صوره تنقل الواقع الى القارىء حياً . وسرّ نجاحه انه جمع بين المأساة الفردية والمأساة العامة جمعاً فنياً موفقاً . والمأساة التي لا تدور حول حياةالفرد هي مأساة « عامة »، شاحبة الالوان ، ضئيلة الحرارة . والمأساة التي لا تنطلق من الفرد لتشمل الجماعة ، او لتوميء اليها ، انما هي مأساة ضيقة الافق ، محدودة التأثير . ولو ان الشاعر اعطى للغريق ،او لزوجته ، اسماً ، اذن لكان الشعور بالفاجعة اقوى . فالاسم يجسّم الشخص ، ويقرّبه من الشعور ، ويثبته في الذاكرة.

عيد الميلاد : صلاح الدين عبد الصبور

في مجتمعنا هذا المضطرب ، المنقسم على ذاته ، المفعم بالمتناقضات ، يعيش اصناف من الخلق ، لكل منهم وجهة في الحياة . منهم اولئك المتشائمون ، المنسحبون من الحياة ، لان الحياة لم تعطهم مايريدون ،وما يريدون هو مجد مؤثل في الصباح يأتيهم عفواً دون كفاح ، وكأس نجيبة ،وغوان يرفلن بالحلل القشيبة في المساء . وقد يندفع هؤلاء الحالمون المتشائمون لخدمة المجموع ، على غير ايمان عميق به ، ولكنهم ما ان يصطدموا باول عقبة حتى يتراجعوا وهم يلعنون الحياة والكفاح وهذا « القطيع » الآدمي الذي لا يفهم ولا يقدّر . قد تحتقر هؤلاء الناس وتسخر منهم . وقد تعطف عليهم وتغفر لهم ضعفهم الانساني . وقد تشفق عليهم وتعتبرهم ضحايا المجتمع المريض . ولكنك لا تستطيع الا ان تعجب بـ « عيد الميلاد »، هذه القصيدة التي صوّرت هؤلاء الناس تصويراً ، صادقاً ، رائعاً ، فيه عبق الشعر الجيد ، وطراوة الفن الاصيل .

البغي الفاضلة : تأليف جان بول سارتر
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

هذه المسرحية هي اروع ما قرأت في هذا العـــدد من « الآداب » . ولا تنبع عظمتها من روعة التأليف المسرحي ، ولا من التوفيق الفني في خلق شخصيات الرواية واطلاقهـــا تتصرف بحرية وفق طبائعها ، ولا من براعة الحوار وعفويته ، فحسب . وانما تنبع من هذا كله ، ومن الفكرة الانسانيـــة العميقة التي تحملها . وهذه المسرحية لا تصوّر مأساة الزنوج في اميركا وحسب ، وانما هي تصوّر شيئاً اعمّ من ذلك ، وابعد خطراً . انها تصوّر مأساة الانسان الذي قتلت هذه الحضارة ، القائمة على المال والاستغلال ، شخصيته ، وافقدته حريتـــه في الاختيار وتقرير المصير . فهذه المدينة كلها تتجمع لتشنق زنجياً قيل لها انه مجرم . وهذا عضو الشيوخ الوقور كلارك يستخدم نفوذ منصبه ، ووقار شيبته ، وفطنته التي صقلتهـا التجارب ، ليغري امرأة ، اختارت قول الحقيقة ، بالتزوير عـلى الواقع ، وخيانة الضمير . وهذا ابنه فراد يكذب ليغوي هذه المرأة ، ويلتذ برؤية بريء يتأرجح على المشنقة ، وكأنه يضاجع امرأة . وهذه العمّة الوقور المتدينة ، تنسى كل انسانية دينها لتبرىء ابنها المجرم ، وتدين بريئاً ، وتذل كرامة امرأة ارادت ان تسلك سبيل الحقيقة . وهذه ليزي ، بطلة المسرحية ، تصمم على قول الحقيقة ، ولكنها سرعان ما تستسلم لطغيان المجتمـــع ، والوجاهة ، والسلطان ، والمال ، فتخون ضميرها ، وتكذب على نفسها وعلى الواقع . وحتى هذا الزنجي البريء يشكك في نفسه ، ويرتبك ، ولا يعلم اذا كان بريئاً حقاً :

ليزي : .. لا ادري بعد اين انا من هذا كله . (فـترة) مهما يكن ، فليس بالامكان ان تكون مدينة برمتها على خطأ . (فترة) بئس الأمر ! بت لا افهم من ذلك شيئاً .

الزنجي : هو ذلك يا سيدتي . هو ذلك دائماً مع البيض .

ليزي : انت ايضاً ، تشعر بانك مجرم ؟

الزنجي : اجل يا سيدتي .

ليزي : ومع ذلك فأنت لم تفعل شيئاً .

الزنجي : لا يا سيدتي .

وترجمة الدكتور سهيل ادريس لهذه المسرحية دقيقـــة ، سليمة اللغة ، جميلة التعبير ، حتى لكأن المسرحية قد أنشئت باللغة العربية إنشاء .

الطوفان . صرصار . في انتظار المعجزة

قصة الأستاذ هاشم الأمين « طوفان » جميلة . وقد اعانت الكاتب لغته الغنية المعبّرة ، وحيوية خياله على التقاط الصور ووضعها في مواضعها الطبيعية من البناء . على ان يجعـل القصة تموج بالحياة . ووصفه لنموّ المظاهرة وسيرها رائع . وقد صوّر الجمهور في القصة تصويراً حيوياً ، واقعيـاً ، واستطاع بصدق فهمه لدوافع الجمهور ، وحسن عرضه لتصرفاته ، ان يكسب القاريء ، شعورياً ، الى جانبه .

اما قصة « صرصار » لراجي عنايت فإطارها جميل ، والفكرة التي تومىء اليها إيماءً نبيلة . ولكن الكاتب لم ينجح في ان يتزك الحوادث تسير بعفوية ، وتتحرك وفق قوانينها هي . كنت أحس بإرادة الكاتب وهي تدفع الحوادث ، والأشخاص ، باتجاه معيّن ، فلم اشعر بان هذه الحوادث قد وقعت ، وإنما شعرت ان الكاتب يريدني على ان اصدق انها وقعت .

اما « في انتظار المعجزة » فقصة ايام عاشها الدكتور عبد العزيز الأهواني ، وعرضها بلغة جميلة متوثبة ، وسرد رائـــع يحسن الوصف ، ويجيد تلوين الصور . وقد تقول : ولكن هذه القصة تعبر عن تجربة فردية عاشها الدكتور ، وقـــد لا يتفق لانسان آخر ان يعيشها . فأقول : وهي كذلك . ولكننا نحب ان نسمع قصص الآخرين ، ومغامراتهم ، وشجون انفسهم . هذا دأبنا نحن الناس . نريد ان نغني حياتنا بحياة الآخرين احياناً ، ونريد ان ننسى انفسنا بالانغمار في حياة الآخرين احياناً .

يوم الطغاة الاخير . المدينة القديمة . اهل الكهف

قرأت نقد الاستاذ رجاء النقاش للعدد الماضي . واريد ان اقف وقفة قصيرة عند بعض احكامه وملاحظاته . حكم على الشعر انه لا يخرج عن المستوى العادي ، وارجع ذلك الى ان « تعبير الشعراء عن هذه التجربة ليس تلقائياً ، بل مدفوع من الخارج بتيار الدعوة الى مشاركة الفن في التعبير عن مشاكلنا » . كيف عرف الاستاذ نقاش ان قضية العرب المناضلين في تونس لم تحرك روح بدر شاكر السياب من اعماقها ، ولم تشغل باله ، وتؤرق لياليه ؟ أعرف ذلك من القصيدة نفسها ، وكل بيت فيها عصب ينتفض احساساً ، وكل صورة فيها تضج بدم الحياة ؟ واذا كان الاستاذ نقاش لم يحس مشكلة تونس ، وبالتالي لم يستطع ان يتذوق تعبير السيّاب عنها ، فهل يعني هذا ان السيّاب مصاب ببلادة الحس ، محروم من « التلقائية » ، تسيّره التيارات الخارجية رغم احساسه الغني ؟

ويأخذ الاستاذ على القصة الروسية « القصد » ، واستمداد التجربة الانسانية في الفن من « نظرية ذهنية » بشكل غـــير تلقائي .. وانها لا تعنى بقضايا الانسان المجرّد وانما تعنى بالانسان

من خلال نظرية ما ، او بيئة واحدة » . اما الانسان «المجرّد» فخرافة لا وجود لها إلا في مخيلة شيخنا افلاطون . وانما هنالك الانسان الفرد ، الذي يعيش في بيئة واحدة ، وفي فترة معينة من الزمن . وبين هؤلاء الافراد مشترك عام ، هو كل ما يمنحهم انسانيتهم من الاعراض والصفات . فاذا وصف كاتب تجربة انسانية عاناها ، ويمكن ان يعانيها افراد عديدون من بيئات مختلفة ، وازمان مختلفة ، قلنا عنه انه كاتب انساني . واذا وصف تجربة عرضية ، عابرة ، قد لا يمر بها إلا فرد واحد او افراد قلائل ، قلنا عنه انه كاتب فردي ، او محلي . وهؤلاء عمالقة القصة في العالم : تولستوي ، وديستويفسكي ، وترغينييف ، وغوركي ، وبلزاك ، وديكنز ، ومارك توين ، هل صوّروا في قصصهم الانسان « المجرد » ام اشخاصاً من لحم ودم ، يعيشون في بيئة معينة ، في فترة معينة ؟ وهل تسقط رائعة توفيق الحكيم « عودة الروح » لانها لم تصور الانسان المجرد ، وإنما صورت الانسان المصري ؟ وقد تألم اهرنبورغ لآلام بني قومه ، وهم يعانون طغيان المحتلين الالمان ، ومجّد كفاحهم للخلاص من هذا الطغيان ، وسجّل انفعاله في « المدينة القديمة » ، هذه القصة الجميلة شكلاً ، ومعنى ، ونبل غاية . وكيف يكون شعور اهرنبورغ غير تلقائي ، والقصة تزخر بالعطف على المظلومين ، والحنان على المجاهدين منهم ، والنقمة على ظالميهم ؟ وتمثل هذه القصة تجربة انسانية صميمة ، يستطيع ان يتذوقها ويشارك فيها ، كل من عرف معنى الحرية ، وأحب بني قومه ، وعانى الاستعباد ، وكابد مشقة النضال واهواله . اما ان اهرنبورغ لم يعبر عن الانسان الالماني ، اي الجندي الالماني الذي اقبل على روسيا يستعبدها ويدمرها ، فلأنه يؤمن بالانسان «الانسان» لا الانسان الوحش . وهذا الايمان «تلقائي» — اذا أصرّ الاستاذ — ينبع من شعوره الانساني ، وذوقه الفني المرهف ، واحساسه بقيمة الانسان .

عندما قرأت نقد الاستاذ عبد الحق فاضل لمسرحية «اهل الكهف» قلت لنفسي : هذا مقال رائع ، التزم كاتبه منهجاً محدداً في النقد ، واحاط بموضوع نقده جملة وتفصيلاً ، وعبر عن نقده بلغة الفنان المبدع ، فكان عالماً وفناناً . فلما قرأت تعليق الاستاذ رجاء نقاش على المقال قلت لنفسي : الاستاذ الكريم لم يفهم المقال . يأخذ الاستاذ نقاش على عبد الحق انه لم يلتزم منهجاً في نقده . والاستاذ عبد الحق يقول في فاتحة مقاله انه قرأ : « بضعاً وعشرين مسرحية لشكسبير وبرناردشو ، وتبدّى لي فضل هذين العملاقين » . من دراسة هذه المسرحيات استمد مفهومه عن الفن المسرحي . والمفهوم الفني الصحيح يستمد من الروائع الفنية ، لا من الكتب النظرية التي تقرر القواعد الجامدة ، وتضع الحدود الضيقة . كان الجمال اولا ، ثم كانت نظريات الجمال . ولو عاد الاستاذ نقاش الى القسم المعنون «الشخصيات» لوجد مفهوم الاستاذ عبد الحق للفن المسرحي محدداً ، ولوجد منهجه في النقد المسرحي مستوفي البناء واضح التفاصيل . اثبت الاستاذ عبد الحق ان اشخاص الحكيم « لا شخصيات » لهم ، وانهم لا يتصرفون بحسب طبائعهم ، وانما بحسب ارادة المؤلف . وفصل ذلك تفصيلاً ، وجاء بادلة عديدة اخذ الاستاذ نقاش واحداً منها ورد عليه . يقول الاستاذ عبد الحق : «إن المؤلف يعمد الى شخوص روايته فيجمعهم واحداً واحداً ، ويعيدهم الى قرارة الكهف ، ولا ينسى ان يعيد معهم الكلب قطميرا .. كأنه لاعب الشطرنج . . . »

ويرد الاستاذ نقاش بان توفيق الحكيم انما صوّر المصريين حين صوّر اهل الكهف ، وان عودة اهل الكهف الى كهفهم ترمز لانسحاب الشرقيين من الحياة . « والفرد المصري هو الانسان الذي صوّره توفيق الحكيم والذي لا تربطه بالحياة في الغالب الا علاقات جزئية الى ابعد الحدود . » المشكلة الاساسية التي حاول الحكيم تصويرها في اهل الكهف هي مشكلة صراع الانسان مع الزمن ، واخفاقه في هذا الصراع . وقد اكد ذلك الاستاذ الحكيم مراراً عديدة ، واصرّ عليه . وليعد الاستاذ نقاش الى الجدل الذي ثار حول المسرحية ابان صدورها ، وشرح الحكيم لأهدافها وغاياتها ، في الرسالة والثقافة وغيرهما من المجلات المصرية ، يجد أن لا علاقة للمسرحية بالمصريين لا افراداً ولا جماعات . والقول بأن الفرد المصري منسحب من الحياة ، لا تربطه بها رابطة ، قول مردود . لا يوجد شعب منسحب من الحياة اطلاقاً . والمصريون الصق الشعوب بالحياة ، ومشكلتها قد اثارتهم ، وشغلت عقولهم ، اكثر من كثير من الشعوب . الم يكونوا اول من كافح العدم ، وثار على الموت ، فحنطوا الجثث ، وآمنوا بالخلود ، ومجّدوا الحياة ؟ وهل بلغت عدوى الانسحاب من الحياة الكلب قطميرا فانسحب هو ايضاً منها ، وعاد الى الكهف اسوة باسياده الشرقيين ؟ ان نقد الاستاذ عبد الحق لاهل الكهف يبقى قائماً ، صحيحاً ، ما لم يرد عليه بمثل الروح العلمية ، والطريقة الفنية ، اللتين اصطنعها في مقاله .

محمد توفيق حسين